دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

البحث عن معنى..
من أين نبدأ الحساب..
وإلى أين ننتهى؟

ماذا بقى لى لأقول؟

كارل كراوس
كاتب نمساوى

obeikan.com

لا أحد يستطيع أن يحدد بالضبط متى انفتحت أبواب الفوضى الشديدة؟!هل حين تحركت القوات العراقية قبل منتصف ليلة ٢ أغسطس ١٩٩٠ إلى داخل الكويت، وفرغت من احتلالها قبل الفجر؟! أم كانت بداية المرحلة قبل ذلك بسنوات وحين توافرت الأسباب من تفكيك أواصر الأمة التى أصبحت منقسمة الفكر والفعل والدم على نفسها.. ومن حروب أهلية وصراعات داخلية.. وحرب مسلحة دموية مع الجيران.. أو حين توافرت عوامل التدخلات الخارجية وفرض الوصاية السياسية والاقتصادية.. وحين تباعدت المسافات والمواقف بين الدول العربية ورغم تعقيدات القضايا المعلقة فى المنطقة!!وحتى حين سعت دول المشرق والمغرب باتجاه "أحلام الجمع" بعيدا عن "واقع القسمة" بحثت عن صيغة "جهوية" شبه إقليمية فى دوائر مغلقة لتحقيق نوع من التكامل والترابط والتعاون فيما بينها.. وجاءت التنظيمات العربية الإقليمية "الجهوية" أقرب للتوجه باستبدال التعاون العربى بصفة الجمع، بآخر له خصوصية جغرافية أو تجمع أقطاره مصالح وأهداف متقاربة أو عوامل الثراء!!

وهكذا ظهرت التجمعات الثلاثة: مجلس التعاون الخليجى ١٩٨١ ـ تجمع دول الثروة، ويركز على حماية الأمر الواقع فى الخليج ـ ومجلس الاتحاد المغاربى ١٩٨٩ ـ تجمع دول المغرب العربى والذى بدا منذ مولده، أقرب إلى مجرد الرغبة فى وجود صورة تحمل شعار التجمع المغاربى، حتى ولو كان عاجزا منذ البداية عن إدارة الأزمة الوحيدة المثارة لديهم، فى مسألة الصحراء الغربية، والنزاع بين المغرب وقوات البليساريو والجزائر!! وبدا التجمع المغاربى مهموما بأوروبا على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط ـ ومجلس التعاون العربى والذى أعلن تأسيسه فى بغداد

١٦ فبراير ١٩٨٩ بين مصر والعراق والأردن واليمن، وحرص الموقعون على اتفاقية التأسيس عل القول بأنه تجمع من أجل كل العرب وليس تكتلا ولا محورا.. بينما الواقع أنه كان يمثل طموحات فردية لم تلبث أن اختلفت فيما بينها وتنازعت وقيل فيما بعد: أن المجلس كان هدفه عزل سوريا وتحييد مصر.. وفشل مجلس التعاون العربى، وتجمد مجلس الاتحاد المغاربى!! وبصرف النظر عن المصير فإن تشكيل هذه المجالس الموازية للمنظمة العربية الأم (جامعة الدول العربية) كشف عن توجه يبتعد عن تفعيل دور الجامعة العربية وباعتبارها تنظيم قومى لمجموعة الدول العربية، ويبتعد عن هموم تعزيز العمل العربى المشترك بصيغة الجمع وترسيخ مفاهيمه.. ورغم ما قيل وقتئذ بأن ميثاق الجامعة العربية فى المادة (٩) يتيح للدول الأعضاء الراغبة فيما بينها فى تعاون أوثق أن تعقد ما تشاء من الاتفاقات لتحقيق هذه الأغراض!! ولكن الاتفاقات الثنائية أو متعددة الأطراف شىء آخر غير التجمعات الجهوية، ومع ظهور نظام عالمى جديد من أهم سماته السعى نحو التجمعات الاقتصادية الكبرى بدءا من الاتحاد الأوروبى وحتى مجموعة دول جنوب شرق آسيا (الآسيان) ومرورا بمجموعة دول (النافتا) فى أمريكا الشمالية..

...

وواقع الحال أن الأمة العربية وهى تعانى من سنوات التشتت فى الفكر والفعل، كانت على أبواب مرحلة الفوضى الشديدة، وهى تدخل فى نفس الوقت ـ مع غزو العراق للكويت ـ أزمة من أصعب وأخطر أزماتها، وبعد أن صدر القرار رقم ٦٧٨ الذى أعطى لقوات التحالف ذريعة استعمال القوة لحل الأزمة وتحرير الكويت!!

الطريف ـ وربما كان من المفارقات التاريخية ـ أن الأمة العربية وهى تواجه أول حالة سطو مسلح عربى من دولة عربية على دولة عربية أخرى مجاورة لها واتسعت الشقوق والتصدعات بين أركان الوطن الواحد.. كانت بريطانيا وفرنسا (يوم السبت ١/ ١٢/ ١٩٩٠) تحتفلان بافتتاح أول طريق برى يربط القارة الأوروبية وبريطانيا منذ العصر الجليدى، وبالتقاء طرفى النفق الذى يصل بينهما ويمر تحت بحر المانش.. والتقى عامل فرنسى وآخر بريطانى وتصافحا فى نقطة الالتقاء التى تقع على عمق مائة متر تحت سطح البحر.. وفى حين كانت الصحراء العربية الشرقية تستعد لأصوات الرصاص وهدير المدافع!!

وهذه نقطة أردت أن أضيفها بقصد التوضيح..

....

كان العالم العربى وسط هذا كله ينتظر الموقف المصرى من الأزمة، وحين كان اتخاذ موقف محدد وقاطع تجاه التطورات أمرا متعثرا بين الحيرة والارتباك، ومما خلق نوع من التمزق العميق بين رفض الغزو العراقى للكويت، ورفض التدخل العسكرى الأمريكى فى الأزمة.. وإلى جانب التمزق كان العجز عن الحركة والفعل واضحا، بل عن التفكير قبل الفعل.. والأزمة طرحت نفسها كنوع من التحدى للدور المصرى!!

كان العالم العربى يترقب حركة الدور المصرى.. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية بدورها ترى أن دور مصر (بتأثيره المحتمل، وبثقل حجم مصر العربى) هو مكمن الخطر الذى ينبغى حصره أو حصاره أو احتوائه أو استقطاب حركته إلى جانب حركة قوات التحالف.. وكانت القيادة العراقية ـ أيضا ـ وعلى نفس المسار تحاول أن تجد مبررا لاستثمار

الموقف المصرى إلى جانبها أو على الأقل تحييد دور مصر!!

. . . .

وكان دور مصر فى هذه الأزمة مجللا بقدر كبير من الالتباس، وقدر كبير من اللغط حوله.. وتشير الوثائق إلى أن تقدير الموقف الذى تم إعداده للرئيس مبارك ـ كان يضع فى الاعتبار التدخل العسكرى الأمريكى المحتمل، والتدخل الإسرائيلى، والتدخل الإيرانى فى الأزمة.. وأن القاهرة مطالبة بحصر نطاق الأزمة قدر ما تستطيع حتى بإعطاء الانسحاب العراقى الحتمى غطاء دبلوماسيا يسمح له بالخروج من الكويت دون إبطاء، ودون إحراج إذا كان ذلك ممكنا، ويتحتم على مصر أن تجند العالم العربى كله لممارسة أقصى درجة من الضغط السياسى على بغداد، ويمكن عمل ذلك عن طريق اجتماع وزراء الخارجية العرب..

ويقول الأستاذ محمد حسنين هيكل (كتاب: حرب الخليج.. أوهام القوة والنصر) أن الرئيس مبارك كان يتصرف فى الأزمة وفقا لتقدير الموقف الذى تم إعداده بحسابات عملية وواقعية مؤداها: (١) أن الوضع السياسى العربى كما رآه قبل وبعد الأزمة، كان وضعا غير مرض، وكان محققا أن ينفجر فى أى لحظة من اللحظات.. (٢) وعندما جرى احتلال الكويت وانفجرت الأزمة فإنها كانت فى تقديره واصلة إلى حرب لاشك فيها، كما أن نتيجة هذه الحرب بدورها ليست موضع شك.. (٣) وكان حسابه فى النهاية أنه إذا جاءت الحرب فإنه لأكثر من سبب لا ينبغى أن يجد نفسه فى معسكر المنهزمين، فهو بذلك يتحمل تبعات لا دخل له فيها، وإذا كانت مسئولياته تطالبه بعمل شىء لتفادى وقوع كارثة فهو على استعداد للقيام به، لكن هناك حدا لا ينبغى تجاوزه، فإذا لم تنفع

جهوده، فقد أدى ما عليه!!

وكان تقدير الموقف فى هذه الحالة، أقرب لمن يريد ألا يتورط فى أزمة تواجه الأمة، أو لمن يريد أن يخرج من بين نيران الأزمة دون أن تحترق ثيابه!! وكأن ما تستطيع أن تقوم به مصر، أو يضطلع به دورها، هو ألا يتجاوز حدا كان مقدرا لها ولدورها، أو أن تقوم بما تستطيع فى حدود المتوقع من حسابات الأرباح والخسائر، حتى لا تجد نفسها فى معسكر المنهزمين!! وكأن تقدير الموقف يوصى بأن تؤدى مصر ما تراه مناسبا لها وفى حدود الجهد السياسى والدبلوماسى، ومثل غيرها من بقية الدول العربية، وإذا لم ينجح الجهد فقد أدت ما عليها!! وبالطبع هناك فرق بين أن تلعب الشقيقة الكبرى دورها، وتتحمل مسئولياته، أو أن تؤدى واجبا كأى دولة عربية أخرى!!

وكان واضحا أن القيادة السياسية تخشى مسئوليات الدور، أو ربما تتجاهل حقائق استراتيجية ضخمة تتصل بدور مصر، ومسئوليات هذا الدور.. وكان المناخ العام يهيئ لقبول أو التراضى بأداء مهمة وليس دورا.. وكانت تلك خطوة متقدمة للتراجع عن مسئوليات الدور، وأن تتحول مصر فيما بعد من لاعب رئيسى إلى متفرج!!

والواضح أن عناصر الحقيقة كانت ضائعة بين جميع الأطراف.. وحتى بعد أن انتهت عاصفة الصحراء بتدمير وحصار دولة عربية وتحرير أخرى، ومنح التواجد الشرعى للقوات الأجنبية بالاتفاقيات وعقود الامتياز فوق مياه وأراض دول الخليج العربى.. فإن الأمة خرجت من الأزمة أكثر استسلاما لليأس والإحباط والوصاية الخارجية!!

....

وأصبح ملف أزمة الخليج عنوانا للهموم العربية، وبعد أن جرت محاولات "تصنيم" هذه الأزمة، وتثبيتها شاهدا لتصدع وانهيار العلاقات العربية، واتخاذها ملاذا للطعن فى كل مقومات وعناصر الأمة.. والاعتماد عليها فى طرح مبررات الخوف وعدم الثقة فى أى طرف عربى، وفى مقابل الاحتماء بالثقة فى صداقة ومساندة أى طرف خارجى.. ومقاومة أية محاولة للمصالحة القومية العربية، ومن بينها مبادرة الدكتور عصمت عبدالمجيد ـ أمين عام جامعة الدول العربية وقتئذ ـ التى تقدم بها فى الثانى والعشرين من مارس ١٩٩٣ وتضمنت رؤيته وأفكاره حول ما يراه ضروريا لاستعادة التضامن العربى، وإعادة بناء الثقة والطمأنينة داخل الأسرة العربية من خلال: البدء فى إقامة بنية الأمن القومى العربى.. ووضع الضمانات وتحديد الالتزامات التى تجعل ما جرى فى صيف عام ١٩٩٠ حدثا لا يجب ولا يجوز أن يتكرر أبدا.. وإعلان مبدأ احترام استقلال الدول العربية وسلامة أراضيها وسيادتها على ثرواتها وعدم التدخل فى شئونها الداخلية.. واحتواء أزمة الخليج بمختلف مراحلها ونتائجها تمهيدا لإغلاق ملف هذه الأزمة وإخراجه من دائرة الهموم العربية..

والمؤسف والمحزن ـ معا ـ أن إغلاق ملف أزمة الخليج ارتبط بفتح ملف السطو المسلح على دولة عربية كبرى (العراق) مع الغزو الأمريكى البريطانى فى شهر مارس ٢٠٠٣ وحتى حين سقطت بغداد فى التاسع من أبريل ٢٠٠٣ فى يد القوات الأمريكية كانت مشاعر "التشفى" والفرح داخل بعض دول الجوار الجغرافى للعراق، مثيرا للأحزان وباعتباره فعلا مذموما!!

والحاصل أنه مع زحام المتغيرات المتدافعة، كان العالم العربى تمسك به أزمات وصلت تداعياتها إلى حيث أفقدته الثقة بنفسه، وإصابته بحالة من الإحباط يهرب منها البعض إما بالاستسلام لليأس، وإما بالانسياق إلى خداع النفس.. وخيّمت حالة من الفوضى العارمة على العالم العربى، وهى فوضى تضغط على كل معنى فيه: الهوية وأصولها، والشرعية ومصادرها، والقيم ومرجعياتها، بل تضغط على الحق والحياة والحرية فى أبسط تجلياتها!!

وهذه الفوضى ـ داخل أمة تتوجع فى صمت ـ قد تقترب فى بعض ملامحها من نظرية "الفوضى الخلاقة" فى الفكر السياسى الأمريكى..ويصف العالم المصرى دكتور أحمد زويل نظرية "الفوضى الخلاقة" بأنها نظرية علمية فى الأساس وليست سياسية، وترتبط بأشياء كثيرة فى الكون يعجز الإنسان عن فهمها حتى فى ذات الإنسان نفسه، وهى تعنى اتجاه الظواهر من النظام إلى اللانظام وأن الساسة الأمريكيين والإسرائيليين يسعون إلى خلق فوضى فى العراق وفلسطين وغيرهما، ثم الاستفادة من هذه الفوضى فى خلق نظام يتماشى مع مصالحهم، ولكن إذا نجحنا فى توحيد طاقاتنا كأمة واحدة تكون لنا كلمة وقدرة تجعل العالم يحترمنا.. وقال د. زويل ـ فى الصالون الثقافى فى دار الأوبرا المصرية صيف ٢٠٠٦ ـ أن الفوضى الخلاقة ظاهرة علمية حيرت العلماء منذ مئات السنين، وهى ظاهرة اجتماعية أيضا تخضع لتأثير الزمن، فالقاعدة العلمية تقول: إن كل الظواهر فى الطبيعة لديها قابلية للانحلال أو عدم النظام، مثل قطعة ثلج متماسكة فى شكل قالب، وعندما تم تعريضها لدرجة الحرارة العادية ذابت وانحلت جزئياتها بعد أن كانت فى صورة منظمة، وهذا يعنى أنه بمرور الوقت سينحل النظام ويصير إلى لا نظام أو

فوضى . . والأجسام عموما لديها بطبيعة القانون الميل إلى الفوضى، وكلما زاد الزمن زادت قابليتها للفوضى . . وهناك إمكانية للتحول من الفوضى للنظام فى الكيمياء وفى المجتمعات أيضا . . وفى الكيمياء يمكن تحويل ذراتها من الهمجية إلى النظام عن طريق الإرشاد وهو ما يشبه فى المجتمعات الدستور والقوانين. فمن ذرات الضوء الهمجية يمكن بالإرشاد الوصول إلى اندماج نووى هائل أو الليزر . . وكذلك المجتمعات عندما توضع لها ضوابط يمكن أن تصبح قوة خارقة . . فالزمن يمكن أن يؤثر ونخرج من الفوضى إلى النظام . . وهناك فرق بين حقيقة الفوضى الخلاقة العلمية، وبين المصطلح الذى يطلقه السياسيون مؤخرا، فالفوضى الخلاقة ظاهرة موجودة فى العلم. لكن استخدامها فى العراق ولبنان وفلسطين يقصد به السياسيون الغربيون أتركوهم إلى أن يقضوا على بعضهم البعض أو "سيبوهم لما يخلصوا على بعض" فهذه ليست فوضى خلاقة وإنما فوضى مدمرة!

وهناك توضيح آخر للظروف والأحوال العربية وعلى هامش الرغبة الأمريكية فى الفوضى الخلاقة ـ ومن وجهة نظر العالم الدكتور أحمد زويل ـ بأن العرب أصبحوا خارج "الملاعب" . . وأن المتاح والممكن أمامهم هو اللعب فى "الحوارى والأزقة" وأن أحد المفاصل الأساسية فى أوضاعنا، أننا أصبحنا خارج الملعب الرئيسى . . والرجل لم يأت بجديد، ولكن كلماته تحمل قدرا كبيرا من الأسى والحزن، وكأنه يرثى واقع أمه!! وهو يرى أن العرب بلا وجود على خريطة العالم، حتى أن الغرب أصبح يضعهم ضمن صحارى إفريقيا علميا وفكريا، وأن المشكلة الأخطر أن المجتمع العربى أصبح وزنه ثقيلا وجسده مترهلا للغاية . . وبمعنى أن العرب كدسوا الدولارات فى جيوبهم، واللحوم والدهون فى أجسادهم،

ولم تعد لديهم القدرة على الحركة والتطور، وأنه على المستوى العام تراكمت المشاكل السياسية والفكرية، وبالتالى أصاب الترهل كل شئ فى حياتنا!!

وصحيح.. الرجل لم يأت بجديد فى تشخيص أحوالنا، ولكن كلماته - كالعادة - كانت أكثر تحديدا فى توصيف حالة الترهل والعجز.. وأن العرب لا يمتلكون أى عناصر قوة تجعل لهم وجودا فى عالم لا يتحرك إلا بدافع القوة.. وليست قوة السلاح والجيوش فقط، وإنما قوة المجتمعات: العلم، والاقتصاد، والصناعة، والتماسك الداخلى!! ورؤيته - وبصفاء فكر ورجاحة عقل - تقول: بأن الخطاب السياسى العربى قد سجل حالة فريدة، وباعتماده على لغة العواطف ومفردات "الواجب الإنسانى"!! وقد يكون مقبولا أن تكون هذه هى لغة حكماء ونبلاء العرب فيما بينهم.. ولكن ليس منطقيا أن تكون هى لغة العلاقات الدولية القائمة على المصالح المشتركة وعلى لغة القوة!! وليس منطقيا كذلك أن الخطاب السياسى العربى تكثر فيه كلمة (نطالب) بينما من يطالب يجب أن تكون لديه القدرة على أن يطالب، وأن يكون عنده المنظومة التى تدفع الآخرين للاستجابة!!

....

وإذا كان الرجل - وهو أحد رموز العلم فى عالمنا المعاصر - لم يأت بجديد فى تشخيص أحوالنا وأوضاعنا.. إلا أنه قد أعادنا مرة أخرى إلى قراءة ملامح الصورة، وأننا فى حالة أسوأ من "الغياب" وغير قادرين على صنع القرار.. لا أحد فى العالم العربى قادرا، ولا أحد لديه القدرة!! وأن الوضع العربى الراهن يجعل كل طرف يهتم بنفسه، وهذا

يحدث وقت الأزمات، وهى متسلسلة ومتواصلة، ومن العراق إلى الصومال إلى السودان.. وكانت فى المقدمة يوما ما "القضية العربية الأم" القضية الفلسطينية، والتى تحولت مع التراجع العربى إلى "أزمة عملية السلام فى المنطقة" والتى تحتك بأزمة الوضع الفلسطينى الداخلى.. فضلا عن الأزمات النائمة والقضايا المعلقة ومن لبنان إلى سوريا، ومرورا بأطراف المغرب العربى.. كل طرف عربى يبحث عن "خلاصه" الخاص، وبمعنى أن الكل يهرب.. وأننا نعيش لحظة هروب فى التاريخ العربى!!!

وفى هذه الأجواء كان البحث جاريا ـ ولو بصيغة التساؤل ـ عن دور مصر؟!

والتساؤل كان عن دور الدولة القائدة وهو دور يتسم بتحمل المسئولية والتضحية، ليس دور الترف بل دور العبء، ومن المهم تفاعل الدولة القائدة مع باقى أطراف النظام العربى الذى تقوده، وأن يترتب على عملية التفاعل هذه تحقيق مصالح كافة الأطراف.. ولكن دور مصر الذى تبحث عنه التساؤلات الحائرة والقلقة، كان بدوره محاصرا بحقائق تحدد أبرز ملامح الإقليم العربى وهى:

* الحقيقة الأولى: أن العالم العربى قد اختلت موازنيه من الداخل، وأن الأمن العربى المشترك قد اهتز عند قوائمه.. والقواعد العسكرية والاتفاقيات الأمنية ـ فى صورة امتيازات ـ مع الولايات المتحدة قد بسطت وفرضت أحكامها، وأصبح التأثير الأمريكى نافذا.. صحيح أن بعضهم اختار التعاقد وتسليم مفاتيح الأمن الوطنى للولايات المتحدة وضميره مستريح، وبعضهم اختار وضميره مازال قلقا.. وفى كل

الأحوال فإن الذين يتطلعون إلى الولايات المتحدة كى تحميهم ليس أمامهم أن يعارضوا خططها!!

* الحقيقة الثانية: انفك التماسك واختل التوازن بين الدول العربية، وحتى الإطار المحيط بها ـ جغرافيا ـ أصابته هو الآخر شقوق وشروخ.. وانتهى الأمر بغالبية الدول العربية ـ أو مجتمعة كلها ـ أن تصبح مروضة، مستأنسة، وتتفق فيما بينها على قرارات فى الفراغ.. ويحدث ذلك فى القرارات السياسية، وفى القرارات الاقتصادية، وفى غير ذلك من المجالات، وتكاليفه على الأمن القومى العربى فادحة(!؟!)

* الحقيقة الثالثة: وبلغة الأرقام فإن أكثر من عشرين دولة عربية ترسم لوحة سريالية للوطن العربى.. من بينها ثلاث أو أربع دول فاعلة فى المنطقة وليس أكثر، وحتى فاعليتها أصبحت باهتة أو واهنة مهادنة!! وهناك دول لا أمل فيها ولا فائدة، وهى مزدحمة بأسباب التناقض الاجتماعى والتخلف والفقر!! ودول عربية أخرى تخضع لتوصيف "لا حول ولا قوة" ولا تستطيع التغلب على مخاوفها الأمنية والسياسية، وسوف يفزعها أن تجد نفسها أمام التزامات قومية محددة وواضحة(!!!)

والمأساة التى ترتبت على ما سبق: هى الانصراف إلى استئناس هذا الواقع، وبعد أن تم اللعب بالتاريخ، وانقلب الحال، وأضحى كل واحد فى الإقليم العربى بمفرده، ويسعى للخلاص فوق بقايا أو شظايا فكرة المشروع القومى للأمة، وحتى اختل توافق الأطراف فى أمة أصبح بعدها السياسى وبمحتواه القومى مضروبا!!

* الحقيقة الرابعة: وجود حساسيات بين دول عربية تختلف فى مصالحها وفى غيبة استراتيجية عامة وشاملة ومستمرة لأمة ـ المفروض ـ

أنه يربطها نفس المستقبل ويجمعها نفس المصير.. وربما كان ذلك هو بعض سبب الخلافات حول تعطيل رد الفعل العربى، وطالما أن العالم العربى مجموعة إرادات موزعة، وأحيانا متنافرة ومتصادمة، وبالضرورة ليست خاضعة لإيقاع واحد، وهكذا يبدو النظام العربى ـ وفى مجمله ـ قد ضاع منه هدفه الرئيسى!!!

* الحقيقة الخامسة: حركة خارجية ـ أمريكية أوروبية ـ تحاول أن تملأ المنطقة بنظام الشرق الأوسط الكبير.. وهى بالطبع ليست مجرد تصورات تحملها الرياح إلى منطقة الشرق الأوسط وشعوبه وممالكه، ولكنها "مشروع قرارات للتغيير والإصلاح" فى صورة مبادرات أعلنت عن نفسها صراحة هذه المرة وليس بالخديعة والمراوغة كما تعودنا.. ويبدو أن أحدا لم يعد مستعدا للتفكير مرة أخرى بسرعة فى كل ما يجرى، وقبل أن نصبح كمن يدعو أنفسهم إلى مهرجان صاخب تدور أحداثه فوق أراضيهم(!؟!)

* الحقيقة السادسة: أن أوراق لعبة التوازن الدولى قد اختلطت بالتطورات الأخيرة فى المنطقة العربية.. ثم جاءت عاصفة الظروف الأخيرة بعد احتلال العراق تدفع الأمور إلى دوامات أكثر تعقيدا فى منطقة توتر وقلق وفى ذلك الوقت الحافل بالتأثيرات الدرامية!!!

* الحقيقة السابعة: هناك عنصر ضاغط بقسوة الآن.. وهو عنصر يمكن أن نسميه عنصر الإيقاع الزمنى للحركة الأمريكية فوق الإقليم العربى..وأصبح كل شىء ـ تقريبا ـ فى بلادنا العربية المكشوفة معرضا ومستهدفا.. شواهد الأحوال تقول لنا أن هذه الأمة تعيش ـ جغرافيا ـ داخل منطقة نفوذ أمريكية، وأن هناك صورا متعددة من أشكال الوصاية

والهيمنة، وإلى تلك الدرجة المتقدمة فى بعض المواقع العربية من عقود المشاركة فى الدفاع عن الأمن العربى!! وأن النفوذ الأمريكى قد تجاوز كثيرا صيغة تقليدية كان يطلق عليها "التبعية العربية للصديق الأمريكى".. وبمعنى: ساحة عربية مفتوحة أمام السلطة والسطوة الأمريكية.. وساحة عربية مفتوحة للفكر والثقافة الأمريكية.. وساحة مفتوحة للدور الأمريكى.. وسوق مفتوحة للاقتصاد الأمريكى.. ولا تقف الأمور عند هذا الحد، لأن النفوذ الأمريكى أكبر من هذه التصورات وأشمل، ويلقى بظلاله على صياغة وصناعة القرارات العربية أحيانا كثيرة(!؟!)

....

ونحن لا ننكر أن الأنظمة العربية ـ كانت ولا تزال ـ فى حيرة من أمرها.. فى مأزق حرج.. مأزق تتصادم فيه ضرورات وأحكام الصداقة الأمريكية.. مع مقتضيات وواجب المسئولية الوطنية والقومية!!

وفى الجملة.. فقد توزعت مواقف الدول العربية حسب الاقتراب من حدود وأحكام الصداقة الأمريكية.. إلى ثلاث طوائف:

* دول عربية تحافظ على أصول أو (لعبة) الصداقة.. وهى ترى أن الالتصاق بالجدار الأمريكى يوفر لها مظلة الحماية للأمن والمصلحة.. الأمن وقد يبدو فى النطاق الشخصى أو الذاتى، والمصلحة بمفهومها الضيق!!

* ودول عربية تسعى لنيل الرضا وإلحاقها فيما بعد إلى دائرة الأصدقاء.. وهى تقدم فروض الطاعة، وتحاول أن تثبت أنها يمكن أن يعتمد عليها أمريكيا!!

* ودول عربية لا يتم تـصنيفها فى دائرة الأصدقـاء، ولكنها لا تجرؤ أن يتم تصنيفها فى دائرة الأعداء.. وهى ـ بإيجاز غير مخل ـ تقف على الهامش، لا تعترض على شيء، وإن كانت لا تخفى الرغبة فى الاقتراب أكثر وأكثر من حدود الصداقة والتبعية!!

وعلى أية حال هناك خلـط شديد بين الصداقة والتبعيـة.. فالصداقة تحددها مـوازين القوى وعلاقات مـصالح متبـادلة ومتوازنة بيـن قوتين، وعلى أسس من التفاهـم تراعى سيادة واستقلالية قرار كـل منهما.. أما التبـعية فـهى شيء آخر تمـاما.. هى علاقـة أدنى بين دولة كـبرى ذات سلـطان غـلاب، وبين دولـة أخرى عـليـهـا فقـط أن تتلـقى المطـالب والتـوجيهـات، أى دولة لها دور أو وظـيفة، ومـقابل وعـود باستـقرار "كرسى" القيادة.. وهى بالطبع علاقة خارج نطاق السيادة والاحترام!!

والخلط الشديد بين الصداقة والتبعية.. دفع ثمنه قادة دول من هاييتى إلى الفلبين ومرورا بشاه إيران.. وغيرهم ممن كانوا يتصورون أنهم حلفاء أو أصدقاء أمريكا، وكان رهانهم دائما على "السيد الأمريكى"!!

....

....

والمشكلة أن النقطة الجوهرية فى محـنة العالم العربى قد تجاوزت كل العناصر التى تؤثر على التمـاسك والتناسق والتوازن، فكل هذه الأوضاع دخلت عليـها تغييرات داهمـة وخطرة، وهناك من يريد أن يمـلأ المنطقة العربية بنظام آخر تتوفر له هوية مستجدة، وإطار أكثر اتساعا ـ هوية على المشاع ـ ومـن هذه النقطة نـستطيع أن نـتابع حالـة الانفلات والتـشتت، وحالة شبه مستعصية من الترهل والعجز(!؟!)

وهذه الحالة أو الصورة الشاملة للأوضاع فـى العالم العربى قد تأملها أستاذنا الكبيـر محمد حسنين هيكل منذ سنوات، ووضع تـوصيفا دراميا مبدعا لها، وقد أجاد بالفعل التـعبير عن الإحساس الغريب الذى يراودنا فى تلك اللـحظة من الزمن الجارى. . إحـساس بأننا جـميعا فى الـعالم العربـى ركاب على طائرة مـخطوفة. . والطائـرة الضخمـة تدخل وسط العاصـفة، الجو يغـيم، السحب المشـحونة تتـصادم، البرق يلمـع بقرب الأجنحـة كأنه لسـعات سوط له أكـثر من لسان. . والمـشاعر تتـوتر فى الطائـرة، والأعصـاب مشـدودة، والقلق يـمسك بـالأنفاس. . الـطائرة مخطـوفة وعلى الكل أن يـلزم مكانه ولا يتـحرك، ولا أحد يسـألنا فى شىء، ولا نحن قادرون على أن ننطق بشىء. . والعـاصفة عاتية والخطر مجنون، والمصيـر علمه عند الله، ونحن فى طائرة مخطوفـة بين السماء والأرض يتحكم فيها حامل مسدس!! صورة مفزعة ومع ذلك فهى قريبة من واقع الحال الذى نعيش فيه!؟!

والعاصفة مازالت تلعب بالطائرة المخطوفة. . ونحن جميعا فى العالم العربى ـ ركاب هـذه الطائرة ـ نعرف جيدا كيف وصـلنا إلى هذه الحال؟ وكيف فقدنا السيطرة على الطائرة وعلـى كيفية اتخاذ القرار وعلى وسائل فرض القرار؟!

وركاب الطائـرة المخطوفة ـ يأسا أو عجـزا أو استسلاما لـلواقع ـ قد فوضوا أمـرهم للمصادفات ربما تحـمل إليهم ما لم يخطر عـلى بال حتى تمرق الطـائرة من سحب الأزمـة وحتى ينـتظم خط سيـرها فى الفـضاء العالى!!

وهذه بعض مـلامح الصورة التـى نعرفها جـميعـا ونعرف مشـاعرنا

إزاءها، حركة غامضة فى الطائرة المخطوفة(!؟!)

ويظل التساؤل قائما: ما الذى يفعله العرب بأنفسهم!؟! هناك موقف مؤسف ومحزن فى العالم العربى، وكان يجب أن ننسق سياستنا مع بعضنا البعض ولكننا لم نفعل، أو فشلنا، وقد أدركنا أننا لا نستطيع ولم نستطع فى ظل قيود التبعية وغياب الإرادة السياسية المستقلة..

والحاصل.. أن تداعيات ما حدث ويحدث، وفى إطار هذه الصورة من شواهد الأحوال العربية، واختراقات وتصدعات الواقع العربى، كانت تضغط على حركة الدور المصرى وتحاصره، حتى لو افترضنا جدلا أن هناك نوايا ورغبة جادة فى أن يكون للدور حركته التاريخية المسئولة.. وأتصور أن أى جهد سياسى أو حتى دبلوماسى لدور مصر الإقليمى والعربى، كان عليه أن يتخطى حواجز كثيرة عربيا وأمريكيا تتحسب جيدا لحركة الدور المصرى.. وكان عليه أن يحتك احتكاكا مباشرا ـ وبالتصادم ـ مع مواقف عربية لها توجهاتها الخاصة "المقيدة" بتوجهات خارجية!! وكان عليه أن يتعامل مع تعقيدات ميراث التشتت والتفتت والشكوك والظنون التى تفعل فعلها على الساحة العربية!! وكانت النتيجة ـ كما نرى ـ أننا تركنا للآخرين حقوق الوصاية على أحوالنا ومقدراتنا وتحركاتنا وترسيم حدود المستقبل:

* هناك من يريد أن يملأ المنطقة بنظام عربى تتوفر له أسباب الإذعان للولايات المتحدة الأمريكية.. وقد حدث!!

* وهناك من يريد أن يملأ المنطقة بنظام شرق أوسطى جديد تتوفر له أسباب التبعية والانتماء للسياسات الأمريكية، وضمان نهائى لأمن إسرائيل!!

وأتصور أن الإضافة الدرامية لهذه الصورة، قد بدأت بالإعلان عن التصنيفات الجديدة التى تشطر المنطقة إلى مجموعتين رئيسيتين: مجموعة المعتدلين العرب.. ومجموعة الراديكاليين أو المتشددين وملحقاتها من حركات أو تنظيمات أو جماعات وميليشيات الرفض المسلح!! والمجموعة الأولى من وجهة نظر أمريكية ـ هى مجموعة الحكماء أو العقلاء العرب الذين يدركون جيدا حقائق الواقع، وحدود الحركة المتاحة، والالتزام بإحكام موازين القوى فى العالم والتى تديرها وتتحكم فى توازناتها القوة الأمريكية الأعظم!! أما المجموعة الثانية فهى تضم الانفعاليين، والمتهورين والذين يدعمون الإرهاب بديلا عن الحوار، ويتصورون أن مناطحة الواقع نوع من البطولة وإثبات الذات.. وقد فقدوا الوعى بأحكام المتغيرات والمستجدات التى تفرض نفسها.. ولذلك فهم يتحدون الزمن الراهن(!؟!) وبين المعتدلين والمتشددين.. هناك مجموعة عربية ثالثة.. هى مجموعة (لا حول ولا قوة) وتقف على الهامش.. على رصيف الأحداث!!

وأعتقد أن اجتماع القاهرة مساء الثلاثاء (٣ أكتوبر ٢٠٠٦) برئاسة وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة "كونداليزا رايس" ومشاركة ثمانى وزراء خارجية عرب يمثلون مجموعة (جى سى سى +٢) أى دول الخليج الست ومصر والأردن.. هذا الاجتماع وهو الأول من نوعه فى المنطقة قد دشن لتلك المرحلة من الطائفية السياسية العربية.. بين حكمة المعتدلين و"نزق" المتشددين.. بين من يعرفون قيمة وأصول الصداقة مع الدولة الأعظم.. وبين من لا يعرفون لغة الحوار فى العلاقات الدولية الجديدة!!!

وأظن.. أن التفسير الصحيح للمواقف والسياسات والتراجعات العربية هو أن ما يجرى وما يحدث على الساحة العربية لابد أن يكون وفقا لرؤية الولايات المتحدة الأمريكية.. ولا أقول أوامرها!! وهناك حقيقة أخرى أصبحت من ثوابت الفكر السياسى العربى.. وهى: ماذا تريد أمريكا حتى يفعل العرب ما تريد!! وبالضرورة فإن كل ما هو متاح وممكن أمام الحكماء فى منطقتنا العربية لن يتجاوز ما هو مناسب للمصالح الأمريكية.. وبصراحة ـ أكثر ـ لا يجرؤ أحد على تجاوز ما تراه أمريكا مناسبا، وفى صورة تفريغ العالم العربى من ذاتيته، وهويته، وانتمائه، وإعادة تشكيله وفقا لمواصفات تخدم المصالح والمطامع الخارجية، وفى محاولة أمريكية لتغيير المنطقة بامتداد يتسع الشرق الأوسط كله.. وكأن الساحة السياسية العربية ـ أمامهم ـ خالية من أى قوى منظمة تستطيع أن تعترض على أى تغيير أو تطوير يفرض عليها فرضا، فضلا عن أن تقاومه(!؟!)

....

....

وفى كل الأحوال، لم تكن مصر لاعب رئيسى وبأحكام مقتضيات وضروروات ومسئوليات دورها، ولكنها اكتفت بدور المتفرج، أو على الأقل المشارك ضمن فريق المعتدلين العرب ـ لا أكثر ولا أقل ـ ومن المحافظين على أحكام وأصول الصداقة الأمريكية، ولمصلحة بقاء واستقرار النظام الحاكم، وشأنها شأن غيرها من الدول العربية!! وكانت تلك الحالة متوافقة مع ما يريده آخرون.. فقد كانت هناك عناصر وعوامل داخل الساحة العربية كانت تدفع بالرغبة وبحسابات المصلحة

القطرية إلى غياب دور الدولة القائد.. وهو دور يتسم بتحمل المسئولية والتضحية، ويستند على الركيزة الثابتة والعميقة الجذور، وهي الركيزة العربية. وهناك ضغوط وتحديات خارجية ـ وأمريكية في المقدمة ـ وهناك حقائق ـ ذكرناها سابقا ـ فرضت ملامح الواقع العربي الراهن المسكون بالفوضى كانت تدفع باتجاه تراجع دور مصر.. وهو المحور الذي تدور حوله الحركة.. وفي غياب المحور عن أداء دوره، فإن هناك خلخلة في أداء كل حركة..

وتذكرة سريعة بالمناخ الحافل بالتأثيرات الدرامية تبدو ضرورية ولازمة!!

□□□

Obeikan.com